

الباب الأول

التمهيد

هذا الباب مدخل للرسالة يتضمن تعريف الإصلاح ، وأهميته في الشرائع السماوية ، والعرف القبلي ، وكذا في الواقع الحياتي للناس ، مع بيان حكم السعي في إصلاح ذات البين في الكتاب والسنة والعرف القبلي ، وتوضيح مشروعيته في الكتاب والسنة ، والإجماع ، والعقل ، ثم بيان فضله على سائر العبادات النفلية . وقد قسمتُ هذا الباب إلى أربعة فصول على النحو الآتي :

الفصل الأول : تعريف إصلاح ذات البين .

الفصل الثاني : أهمية إصلاح ذات البين .

الفصل الثالث : حكم إصلاح ذات البين .

الفصل الرابع : مشروعية إصلاح ذات البين وفضله .

obeikandi.com

الفصل الأول

تعريف إصلاح ذات البين

- المبحث الأول : تعريف الإصلاح لغة .
- المبحث الثاني : تعريف الإصلاح اصطلاحاً .
- المبحث الثالث : معنى ذات البين .

obeikandi.com

الفصل الأول

تعريف إصلاح ذات البين

لن نتعرض في هذا الفصل لتعريف كلمة "الصُّلْح" كما اعتاد أئمة الفقه - رحمهم الله - وخاصة عند كلامهم عن الصلح ، لكننا سنتحدث عن لفظ "الإصلاح" ؛ لأننا لم نجد الاهتمام به ، وتفصيل القول فيه ، وتعريفه كاسم مصدر ؛ لذا فنحن سوف نركز اهتمامنا على تعريف لفظ "الإصلاح" لغة ، واصطلاحاً ، وأيضاً لفظ " ذات البين " ؛ حتى يتضح عنوان الرسالة ، وهي على النحو الآتي :

المبحث الأول

تعريف الإصلاح لغة

إصلاح : اسم مصدر من أصلح ، وأصلح هو صيغة التعدد من لفظ صلح ، والإصلاح نقيض الإفساد ، وأصلح الشيء بعد فساده : أقامه ^(١) ، وكلمة إصلاح : إحدى اشتقاقات الالفاظ التي تجمعها مادة (ص . ل . ح .) ^(٢) وهو يدل على خلاف الفساد .

قال الراغب ^(٣) ، والصلح يختص بإزالة النِّفَار بين الناس ، يقال : اصطَلحوا

(١) محمد بن مكرم المشهور بابن منظور ، لسان العرب ، ٢ / ٤٦٢ ، إعداد يوسف خياط وتديم مرعشلي ، (مادة صلح) ، دار لسان العرب ، بيروت ، بدون رقم الطبعة وتاريخها .

(٢) محمود روحاني ، المعجم الإحصائي لالفاظ القرآن الكريم ، ١ / ٤٧٥ ، تحقيق : محمود روحاني ؛ ويُنظر تاج العروس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم الطبعة وتاريخها ، ص ١٨٢ . ويُنظر لسان العرب ٢ / ٤٦٢ .

(٣) الحسين بن محمد بن المفضل ، المعروف بالراغب الاصفهاني ، أديب لغوي ، حكيم مفسر ، ت / ٥٠٢ هـ ، له عدة مصنفات ، تحقيق البيان في تأويل القرآن ، الدرعة إلى مكارم الشريعة ، ينظر : معجم المؤلفين ٤ / ٥٩ .

وتصالحوها^(١) .

والمصالحة بمعنى المسالمة بعد المنازعة^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي بعدما أصلحها الأنبياء وأصحابهم^(٣) ، وأصلح أتى بالصلاح وهو الخير والصواب ، وفي الأمر مصلحة أي خير ، والصلح هو التوفيق^(٤) ، والصلح التئام شُعب القوم المتصدع^(٥) ، وكذلك معنى قوله ﷺ : (اللهم أصلح ذات البين)^(٦) أي أصلح الحال التي بها يجتمع المسلمون^(٧) ، فالصلح هو الوصف ، والإصلاح هو الفعل لإحلال ذلك الوصف وإزالة ضده . وهناك معانٍ كثيرة للفظ (أصلح) نورد بعضاً منها ؛ لكي نوضح للقارئ سعة دلالة هذه اللفظة :

[١] أصلح الشيء بعد فساده : أي أقامه^(٨) .

[٢] أصلح الدابة : أحسن إليها فصلحت^(٩) .

[٣] أصلح إليه : أحسن إليه^(١٠) .

-
- (١) أبو القاسم حسون بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ضبطه وراجعه محمد خليل عيشاني ، بيروت ، دار المعرفة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ، ص ٤٢٠ .
- (٢) كتاب التعريفات ، علي بن محمد المجرجاني ، بيروت ، لبنان ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ١٣٤ .
- (٣) عبد الرحمن السيوطي ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، ٣ / ٤٧٦ ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- (٤) أحمد بن محمد الفيومي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، ١ / ٤٠٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، دار البار ، مكة ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- (٥) أحمد رضا ، معجم مقن اللغة ، موسوعة لغوية حديثة ، ٣ / ٤٧٩ ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .
- (٦) رواه أبو داود ، سنن أبي داود ، ١ / ٢٥٥ ، رقم الحديث (٩٦٩) ، باب التشهد .
- (٧) ابن منظور ، لسان العرب ٢ / ٤٦٢ .
- (٨) الزهبي ، تاج العروس ، ٢ / ١٨٢ ، مادة صلح .
- (٩) ابن منظور ، لسان العرب ٢ / ٤٦٢ .
- (١٠) موسى بن محمد بن الملياني الأحمدى ، معجم الأفعال المنصوبة بحرف ، ص ١٩٩ ، دار المعلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى ، حزيران ، ١٩٧٩م .

- [٤] أصلح بينهم : وفق^(١) .
- [٥] أصلح بين الناس : أزال النّفار^(٢) .
- [٦] أصلح : أتى بالصلاح وهو الخير والصواب^(٣) .
- [٧] والصلح إطفاء الثائرة : هي العداوة والشحناء^(٤) .
- و أقرب هذه المعاني هو الصلح الذي هو بمعنى إطفاء الثائرة .
- فهذه الاستعمالات اللغوية لكلمة (أصلح) ومشتقاتها توضح كون الشيء موضع ، أو هدف الإصلاح وهو الإنسان وغيره .



(١) أحمد بن محمد الفيومي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، ١ / ٤٠٨ .

(٢) إبراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ١ / ٥٢٠ ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، مادة " صلح " .

(٣) أحمد بن محمد الفيومي ، المصباح المنير ، ١ / ١٣٢ .

(٤) نجم الدين بن حفص النسفي ، طلبة الطلبة في الإصطلاحات الفقهية ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، تحقيق : الشيخ / خليل الميسي .

البحث الثاني

تعريف الإصلاح اصطلاحاً

بعد البحث والتقصي في أمهات الكتب الفقهية طمعاً في أن أجد تعريفاً اصطلاحياً يوضح كلمة (إصلاح) توضيحاً علمياً ؛ حتى أثبتته بصفته تعريفاً لعنوان هذه الرسالة ، لكنني لم أقف على تعريف محدّد يكون جامعاً مانعاً ، رغم كثرة استعمال هذه الكلمة وورودها في الكتاب والسنة ، وعلى السنة الخلفاء والتابعين ، ومن بعدهم من أهل اللغة ، ومع ذلك فقد أشار بعض العلماء المتأخرين إلى تعريفات لكلمة (إصلاح) ولكنها قاصرة ، فقد جاء في الموسوعة الفقهية (الإصلاح) : التغيير إلى استقامة الحال على ما تدعو إليه الحكمة^(١) ، وقال بعضهم : تقويم العمل على ما ينفع بدلاً مما يضر^(٢) ، وقال صاحب روح المعاني : الإصلاح : هو جعل الشيء على تلك الحالة المستقيمة النافعة^(٣) .

وقال الإمام محمود شلتوت^(٤) : " أما إصلاح ذات البين فمعناه إصلاح الأحوال التي بينكم ، وإصلاحها هو السير بها على مقتضى ما أمر الله وعدم التمسك منها بالشهوات والأغراض ، وهو إنما يكون بالوفاق والتعارف والمواساة وترك الأثرة^(٥) " .

(١) صالح بن حميد بن عبد الله بن حميد ، الموسوعة الفقهية ، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، ٥ / ٦٢ ، إعداد مجموعة من المتخصصين ، جدة ، دار الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
(٢) محمد عبد الرؤوف المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، تحقيق محمد رضوان الرابطة ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ ، ص ٦٧ .

(٣) إسماعيل حقي البروسوي ، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، ٩ / ٧٣ ، اختصار وتحقيق : الشيخ / محمد الصابوني ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٤) محمود شلتوت : فقيه مفسر مصري ، ولد في منية بني منصور (بالبحيرة) وتخرّج بالأزهر (١٩١٨) وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة (١٩٢٧ م) وكان داعية إصلاح نير الفكرة ، يقول بفتح باب الاجتهاد ، وسعى إلى إصلاح الأزهر فعارضه بعض كبار الشيوخ وطردوه ، فعمل في المهامه (١٩٣١ - ١٩٣٩ م) وأعيد إلى الأزهر ، فعمّن وكهلاً لكلية الشريعة ، ثم كان من أعضاء كبار العلماء ومن أعضاء مجمع اللغة العربية (١٩٤٦ م) ثم شيخاً للأزهر (١٩٥٨ م) إلى وفاته ، وكان خطيباً موهوباً جهير الصوت ، له (٢٦) مؤلفاً . مطبوعة الاعلام للزيركلي ، ٧ / ١٧٣ ، ط ٧ ، ١٩٨٦ م ، دار العلم للملايين ، بيروت .

(٥) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم ، ١ / ٥٦٣ ، الأجزاء العشرة الأولى ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

وقال أبو البقاء الكوفي (١) : " هو سلوك طريق الهدى .

وقيل : هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل ، والصالح : المستقيم الحال في نفسه " (٢) .

وقال المناوي (٣) : الإصلاح : تلافى خلل الشيء ، وقال بعضهم تقويم العمل على ما ينفع بدلاً مما يضر (٤) .

وكل ما أثبتناه من التعريفات لم يف بالغرض ، ولم يحدد مفهوم لفظ (إصلاح) بدقة وفق المنهج الفقهي الذي يسلم من الاعتراض . وعليه فقد رأيتُ تعريف لفظ (إصلاح) أن يكون : هو السعي إلى رفع النزاع القائم ، أو المتوقع بين طرفين ، وقطع الخصومة القائمة بالتراضي والتوفيق بينهما على مقتضى أمر الله ، حيث إن التعريف يشير إلى أن هناك ساعٍ يرغب في رفع الخصام القائم أو المتوقع بين شخصين بغرض قطع النزاع على سبيل التراضي وفق ما هو مقرر في الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب تم اختيار هذا التعريف لأنه جامع مانع .



(١) أبو البقاء الكوفي : أيوب بن موسى الحسيني صاحب كتاب الكلبيات ، من قضاة الأحناف ، ولي القضاء في كفة بتركيا وبغداد والقدس ، عاد إلى استنبول وتوفي بها ، وقيل : توفي بالقدس وهو قاضٍ فيها ، توفي سنة ١٠٩٣هـ . الاعلام للزيركلي ٢ / ٣٨ .

(٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسين الكوفي ، الكلبيات ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م ، مؤسسة الرسالة ، ص ٢٦ .

(٣) المناوي محمد بن عبد الرؤوف بن علي : من كبار العلماء في الدين والفنون ، ولد سنة ٩٥٢هـ ، عاش بالقاهرة وتوفي بها سنة ١٠٣١هـ ، له نحو مائتين مصنفاً من أشهرها فيض القدير شرح الجامع الصغير ، الاعلام للزيركلي ٦ / ٢٠٤ .

(٤) محمد عبد الرؤوف المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ٦٧-٦٨ .

البحث الثالث

معنى ذات البين

قال ابن فارس^(١): "الباء والياء والنون أصل واحد، وهو بعد الشيء وانكشافه، فالبين الفراق .. يقال: بان بيناً وبيناً وبينونة، وبان الشيء: اتضح وانكشف"^(٢).

قال الراغب الأصفهاني: "هي الأحوال التي تجمع من القرابة، والوصال، والمودة"^(٣). وقال الزجاج^(٤): "معنى ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، حقيقة وصلكم، والبين: الوصل"^(٥)، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

والبين في أصل اللغة يطلق على الاتصال والافتراق، والبين هنا المقصود به الاتصال، فالله أمر عباده بأن يتواصلوا ويصلحوا ذات بينهم، بمعنى أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير بالتواد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم ويزول ما يحصل بسبب التقاطع من التخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل في إصلاح ذات البين وتحسين الخلق والعفو عن المسيئين منهم؛ فإنه يزول كثير مما

(١) أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، توفي سنة ٣٩٥هـ كما قال السموطي، بلده همدان، ثم رحل إلى قزوين، ثم إلى زنجبار وغيرها، وتلمذ على يد العديد من مشايخ العلم، منهم والده أبو بكر، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان وغيرهم، وتلمذ على يديه بديع الزمان الهمداني، والصاحب بن عباد، له عدة مؤلفات منها المقاييس - فقه اللغة، وكان شافعي المذهب. ينظر: البلغة في تاريخ أئمة اللغة، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ص ٤٤.

(٢) أبو الحسن أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ص ٧٨.

(٤) إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، نسب لصنعتة وهي خراط الزجاج، له تصانيف عديدة منها: معاني القرآن، وخلق الإنسان، توفي في بغداد سنة ٣١١هـ، وعمره سبعون سنة. طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي الداودي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣ - ١٤.

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ٣ / ٣٢٠، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

يكون في القلوب من البغضاء والتدابير^(١) ، ومن ثم فإن عدم إصلاح ذات البين يؤدي إلى الانكشاف والتشردم والانهمام أمام الأعداء ، وسيطرتهم على مقدرات الأمة كما هو حاصل اليوم.



(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣-٤ / ٦٩ .

obeikandi.com

الفصل الثاني

أهمية إصلاح ذات البين في التشريعات السابقة
والتشريعات الإسلامية و العرف القبلي

-
- المبحث الأول : أهمية إصلاح ذات البين في التشريعات السابقة .
 - المبحث الثاني : أهمية إصلاح ذات البين في الشريعة الإسلامية .
 - المبحث الثالث : أهمية إصلاح ذات البين في العرف القبلي .
 - المبحث الرابع : أهمية إصلاح ذات البين من الناحية الواقعية .

obeikandi.com

الفصل الثاني

أهمية إصلاح ذات البين

لا شك أن الإصلاح بين الناس قد اعتنت به كل الرسالات السماوية ، ومارس تطبيقه الانبياء والمصلحون وغيرهم ؛ من أجل إنهاء الخصومة القائمة بين الناس ، وقد استدعى هذا الفصل تقسيمه إلى أربعة مباحث ، وهي على النحو الآتي :

المبحث الأول

أهمية إصلاح ذات البين

في التشريعات السابقة

من المسلمات أن الإنسان هبط إلى الأرض ، ونزلت معه تشريعات سماوية (اليهودية والنصرانية) تحدّد له طرق التعامل بينه وبين أخيه الإنسان ، فالاجتماع الإنساني ضروري ، كما يقول العلامة ابن خلدون ^(١) في مقدمته ^(٢) : وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع بقولهم " الإنسان مدني بالطبع " أي لا بد له من الاجتماع والعيش مع بني جنسه ، وهذا العيش المشترك لا بد أن تنشأ عنه معاملات وعلاقات فيما بين الأفراد ، وما ينتج عنه من منازعات ، فالنفوس البشرية متباينة الأهواء .
وحكمة الله تأتي أن يُترك الإنسان سدى ، بلا إرشاد لطريق الحق ، ولا بيان لقواعد

(١) عبد الرحمن بن محمد ولي الدين الحضرمي ، ولد في أول رمضان عام ٧٣٢هـ ، وتوفي عام ٨٠٨هـ ، عمل قاضياً في مصر على المذهب المالكي ، له عدة مؤلفات أشهرها المقدمة ، وشرح البردة ، وشفاء السائل لتهديب السائل . الاعلام للزركلي ٣ / ٣٣٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ١ / ٦٩ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، طبع سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

السلوك ، وَمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَىٰ خَطَأٍ عَظِيمٍ^(١) ، قال تعالى : ﴿ أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] ، فالصُّلْحُ والإصلاح دعت إليه التشريعات السابقة ، وخير دليل على ذلك قول الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ : " اشترى رجل من رجل عقاراً له ، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب ، فقال له الذي اشترى العقار : خذ ذهبك مني إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أبتع منك الذهب ، فقال للذي اشترى الأرض : إنما بعثتك الأرض وما فيها ، فتحاكما إلى رجل " (٢) .

قال النووي^(٣) - رحمه الله - : " فوجد المشتري فيه جرة ذهب فتناكرا ، فاصلح بينهما رجل على أن يزوج أحدهما بنته ابن الآخر ، وينفقا ويتصدقاً منه " . فيه فضل الإصلاح بين المتنازعين^(٤) . وهذا الموقف العظيم يبين شيئين :

أولاً : ورع البائع والمشتري وزهدهما في شيء لا يعلمان حكم الله فيه ، وأن كلاً منهما يرى الحق لصاحبه في شيء لم يدفع ثمنه ، ولا ملك له عليه .

وثانياً : عدل الحاكم في حكمه ، وأنه عرف الحق ف قضى به ولم يتردد فيه ؛ فاصلح بين المتحاكمين ، والصلح خير^(٥)

(١) عبد الكريم زيدان ، للدخول لدراسة الشريعة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ، ص ٥ ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، ص ٥ .

(٢) أخرجه مسلم ، ١٢ / ١٩ - ٢٠ ، باب : استحباب إصلاح الحاكم بين المتحاكمين ، الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م ، للطبعة المصرية بالازهر .

(٣) يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا النووي الدمشقي ، ولد سنة (٦٣١هـ) في نوى ، وتولى والده الصالح رعايته وتاديبه ونشأه تنشئة طيبة محضة منذ الصغر على طلب العلم ، لما لاحظ فيه من مخايل النجابة والذكاء والاستعداد القظري ، توفي سنة ست وسبعين وستمائة للهجرة ليلة الأربعاء في الرابع والعشرين من رجب . يُنظر : الاعلام للزيكلي ، ٨ / ١٤٩ .

(٤) النووي ، شرح صحيح مسلم ١٢ / ١٩ ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م ، المطبعة المصرية بالازهر ، إدارة محمد محمد عبد اللطيف .

(٥) محمد بن سالم البيهاني ، إصلاح المجتمع ، شرح مائة حديث مختارة مما اتفق عليه البخاري ومسلم ، دار المجتمع ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ص ٢١٧ .

البحث الثاني

أهمية إصلاح ذات البين في الشريعة الإسلامية

إن أهمية إصلاح ذات البين تظهر من خلال الدور الذي يقوم به من إنهاء الخصام المؤدي إلى القتل والقتال والتقاطع والتهاجر بين أفراد المجتمع المسلم ، وإعادتهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من اللفة والمحبة ، وأن يكونوا كالبنان ، أو كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ولعظم أهميته فإن إصلاح ذات البين وتاليف القلوب من عمل الحق سبحانه وتعالى (١) .

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٣] .

فإصلاح ذات البين ، وتاليف القلوب الحاصل بعد العداوة نعمة من الله تستحق الشكر لله - سبحانه وتعالى - ، والمسارة إلى إصلاح ما أفسد جرأ الخصام ، والعمو عمن أساء رغبة في الاجر من الله ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السُّرِّاءِ وَالضَّرِّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤) .

[آل عمران : ١٣٤] .

يقول سيد قطب (٢) : " والذين يجودون بالعمو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون .. والله يحب المحسنين " (٣) دليل ذلك الآية السابقة الدالة على محبة الله للمحسنين ، فإصلاح ذات البين من المبادئ الإسلامية المهمة ، بل هو من مهمات

(١) عبد الصبور مرزوق ، معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم ، ١ تصنيف ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م ، ص ٢٩٢ .

(٢) سيد قطب بن إبراهيم ، مفكر إسلامي مصري من مواليد قرية (موشا) في أسيوط ، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة ، ولد سنة ١٣٢٤هـ-١٣٨٧هـ ، انضم إلى الإخوان المسلمين فترأس قسم نشر الدعوة ، وتولى تحرير جريدتهم ، وسجن معهم إلى أن صدر الحكم بإعدامه . يُنظر : الأعلام للزركلي ٣ / ١٤٧-١٤٨ .

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١ / ٤٧٥ ، القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الشرعية التاسعة ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

رسالة الإسلام التي قوامها أمران : الصّلاح والإصلاح^(١) . بل هي المهمة العظمى للرسول - عليهم السلام - ، ولا شك أن الفُرقة فشل ودمار للملك ، وأن الإصلاح قوة للأمة وعزّها في كل شؤونها ، فيإصلاح ذات البين يستقيم الناس على أمر الله ، وتُسدُّ الثغور ، وتُحمى الأعراس ، وتُجمع الكلمة ، وهذا الإصلاح واجب شرعي ، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها ، وبه تُحفظ وحدتها^(٢) .

وما من جماعة من الجماعات ، ولا أمة من الأمم شُغلت بالخلاف إلا وتفرقت كلمتها ، وضعفت شوكتها ، وزالت عزتها ، وتمكن منها أعداؤها ، ومزقوها شرمزق^(٣) .

بل صرّح القرآن بعدم الخيرية لأفراد المجتمع إن لم يقوموا بواجب الأمر بالإصلاح والصدقة والأمر بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) ﴾ [النساء ١١٤] . بل إن الله قد وعد القائمين بإصلاح ذات البين بالأجر العظيم والنعيم المقيم^(٤) .

ولاهمية إصلاح ذات البين حثّ القرآن الكريم الأمة على أن تقوم بواجبها في ذلك ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾ [آل عمران : ١٠٤]

ولا شك أن إصلاح ذات البين من أعظم أعمال المعروف ، وفعل الخير ؛ ولذلك حرص الرسول ﷺ على إصلاح ذات البين فقال : (اذهبوا بنا نصلح)^(٥) .

(١) فتحي الدررني ، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ - ١٩١٢م ، ص ٣٨٣ .

(٢) أحمد بن مصطفى المراغي ، تفسير المراغي ، ٣ / ٣٢٩ .

(٣) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم ، ١ / ٥٣٤ .

(٤) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم ، ١ / ٥٦٣ .

(٥) رواه البخاري في كتاب (المصلح) باب (فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم) حديث (٢٧٠٧) ،

صحيح البخاري مع الفتح ، ٥ / ٣٠٩ ، ورواه مسلم في كتاب المسافرين ، باب (استحباب صلاة الضحى) .

وسار على هذا النهج صحابته الكرام في الإصلاح ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١) يكتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (٢) موجهاً إياه إلى الأخذ بالصلح قبل فصل القضاء ، فقال : " والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً " (٣) ، وورد عنه رضي الله عنه أنه قال أيضاً : " ردُّوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن " (٤) .

فبالصلح تزول العداوة والبغضاء من القلوب وتحل محلها المحبة والإخاء ، ويتفرغون لأعمالهم ؛ فيكسبون أوقاتهم ، بل وأوقات غيرهم من القضاة والكتّاب والمحامين . إذاً فإن إصلاح ذات البين له أهمية ظاهرة ، لما له من أثر عظيم في سلامة المجتمعات الإسلامية وإنهاء كل الأسباب المؤدية إلى تفكك عرى الأخوة ، وتخلخل بنائها، وانهدام قواعدها، والمؤمنون إخوة في الدين كما وصفهم الله - سبحانه وتعالى -

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، أبو حفص، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة. وكان من أشرف قريش، أسلم بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة، وقيل بعد تسعة وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة، وكان النبي ﷺ قد دعا له قائلاً: [اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام]، يعني أبا جهل، وكان إسلام عمر في السنة السادسة، وقد سماه النبي صلى عليه وسلم، الفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب به المثل، وكانت هجرته إلى المدينة جهاراً.. شهد بدرًا وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وهو الذي أشار بقتل أسارى المشركين في بدر، وكان فقيهاً في دين الله قائماً بحدوده، ذا هبة في صدور الرجال، كثير الزهد والتواضع، له فضائل عديدة، تولى الخلافة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه جميعاً، طعن سنة ٢٣ هجرية صباح يوم الأحد لربع ليل بقين من ذي الحجة، ومكث ثلاثاً وتوفي، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال. أسد الغابة، ٤ / ١٥٦، ترجمة رقم ٣٨٢٤، و: البداية والنهاية، لابن كثير: ٧ / ١٣٧ وما بعدها، و: تاريخ الخلفاء: ١٢٧-١٧٤.

(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار، أسلم وهاجر إلى الحبشة، قدم المدينة بعد فتح خيبر، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالها، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البصرة، ثم استعمله عثمان على الكوفة، مات رضي الله عنه سنة أربعة وأربعين للهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة بالكوفة، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤ / ١١٩-١٢٠. يُنظر سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٩ هـ-١٩٨٨ م / ٢ / ٣٨٠.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٧١ (٣ / ٧١) الطبعة الثالثة، ١٣٩٣ هـ-١٩٧٣ م، مطبعة البابي الحلبي وشركاه.

(٤) رواه عبد الرزاق الصنعاني في كتاب البيوع، باب (هل يرد القاضي الخصوم حتى يصطلحوا؟) (المنتصف، منشورات المجلس العلمي الهندي، بدون رقم الطبعة وتاريخها، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ٨ / ٣٠٣ رواه البيهقي في السنن الكبرى، ٦ / ١٦).

فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقال ﷺ :
 (كونوا عباد الله إخواناً)^(١) ، فهم يسعون إلى إصلاح ما فسد بوسيلة ذاتية يقوم
 بها الأطراف ذوو الشأن بأنفسهم ، أو بواسطة من يمثلونهم ويحسمون بمقتضاها
 خلافاتهم ، وتسوية نزاعاتهم سواء كانت نزاعات دولية ، أو إقليمية ، أو قبلية ، أو
 أسرية ، وذلك عائد إلى طبيعة النفس البشرية الأمانة بالسوء ، و من المسلمات أن
 النفوس البشرية متباينة الأهواء والنزعات ، منها من يركن إلى جانب الحق والصواب ؛
 لخوفه من لقاء ربه ، أو امتثالاً لولادة أمره ، وفي المقابل فإن جانباً آخر منها لا يلتزم
 جانب الحق والصواب^(٢) . فعلى المصلحين أن يبينوا الحق لمن جانب الحق والصواب .
 فالساعي بين الناس بقصد الإصلاح يقوم بعمل مهم وعظيم ، حيث يقرب بين
 القلوب المتباغضة ، ويطهرها من الاختلاف والتباغض والتشاحن فهي وسيلة ذاتية
 يقوم بها الأطراف ذوو الشأن بأنفسهم ، أو بواسطة من يمثلونهم ويحسمون
 بمقتضاها خلافاتهم وتسوية نزاعاتهم^(٣) ؛ فالناس يحتاجون إلى هذا الصلح لقطع
 المنازعات ودفع الخصومة^(٤) ، ويجب على المتخاصمين أن يقبلوا الاعتذار عن أساء
 إليهم ، وأن يتوخوا الحق ، ويرد كل واحد مظلمة أخيه ، ويتسامح منه ، فإن لم
 يفعلوا ذلك ، فإن رسول الله ﷺ قد بين ووضح العقاب ، فقال : (ومن أتاه
 أخوه متصلاً^(٥) فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على

(١) أخرجه البخاري من حديث أمس ﷺ ، الفتح ١٠ / ٤٩٢ ، رقم ٦٠٦٧ ، كتاب الآداب ، باب الهجرة ، ورواه

مسلم ٤ / ١٩٨٣ رقم ٢٥٥٩ ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير .

(٢) عاشور مبروك ، نحو محاولة للتوفيق بين الخصوم ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، بدون رقم الطبعة ، ٢٠٠٢ م ،
 ص ٣ .

(٣) محمود السيد عمر التحويري ، أنواع التحكيم وتمييزه عن الصلح والوكالة والخبرة ، دار المطبوعات الجامعية ،
 الطبعة الأولى / ١ / ٢٤٩ .

(٤) محمود ابن أحمد العيني ، البنابة في شرح الهداية ، ٧ / ٦٠٥ ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ -
 ١٩٨١ م .

(٥) متصلاً : انتقى من ذنبه واعتذر إليه ، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ، النهاية في غريب
 الحديث والأثر ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٩ م ، تحقيق : الطناني وطاهر الزاوي ، ٥ / ٦٧ ، باب
 النون مع الصاد .

(١) الحوض .

وهذا تحذير عظيم من الرسول ﷺ توجل منه القلوب ، وتستشعر المسؤولية نحو الترابط الاجتماعي ، فكم من أخ فارق أخاه ، وكم من جار قاطع جاره ، وكم من شريك نازع شريكه في دهايز المحاكم . وهذا كله مذموم في الشريعة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، والتنازع الذي يؤدي إلى التقاتل وسفك الدماء ، وليس ذلك لتطبيق شرع الله ، وليس لمنع الظلم وإحقاق الحق ، بل التقاتل لهدف انتصار قبيلة على أخرى وإذلالها وإفنائها في سبيل الهوى ، وفي سبيل الشيطان ، وفي سبيل التعصب القبلي والأسري ، وهذا مخالف لأمر الله الذي أمرنا بعدم التنازع ، فالإسلام رسالة ربانية ترفض التعصب وتقضي على العصبية ، وتجعل التفاضل بين الناس بالتقوى : قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .



(١) أخرجه المحاكم في كتاب البر والصلة ، المستدرک لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون رقم الطبعة وتاريخها ، ٤ / ١٥٤ .

البحث الثالث

أهمية إصلاح ذات البين في العرف القبلي

يُعدُّ الصُّلحُ في اليمن هو الأكثر أهميةً من بين كل الوسائل التي من خلالها تُحلُّ النزاعات ، فغالباً ما يلجأ إليها الفرد، أو الجماعة ، أو القبيلة ، أو الدولة ؛ لإنهاء أي مشكلة قد تحدث بين الناس، فالصلح أقرب الوسائل إلى قلوب اليمنيين ، حيث إنه يعد مفخرةً يعتز بها كل يمني ، بل إن القائم بهذه المهمة يتميز بمركز ومكانة كبيرة يُحترم من خلالها ؛ لأنه صاحب خلق ، وكذلك القابل للصلح يُحترم من قبل الآخرين ، ويكون له في قلوبهم أعظم تقدير .

وهذا دليل على أهمية العرف القبلي لدى الفرد ، أو الجماعة ^(١) ، فهم يرون أنه لا مجال لهم لتركه والتخلي عنه ، فهو عادة تسري في عقولهم وعروقهم ، بل جزء من كياناتهم ، ورمز وحدتهم وانتمائهم إلى قبيلتهم ، فلا يرضون به بديلاً ، فهم يلبون إلى نبد أي قاعدة جديدة لم يجربوها ، أو لم يتوارثوها عن أسلافهم ^(٢) حيث يصبح الخروج عنها ، أو مخالفتها خروجاً عن القبيلة وتقاليدها فتنزل الخارج أقسى العقوبات .

لذا فهم يفضلون الرجوع عند الخصام والخلاف إلى المشايخ والوجهاء وأعيان البلد؛ لحل قضاياهم من خلال الصلح ، والإصلاح وسيلة محببة توصل المتخاصمين في جلسة ، أو جلستين إلى حلول مرضية للطرفين مما يجعل المجتمع اليمني ينفر من المحاكم الرسمية ، ويقبل أحكام العرف دون معارضة أو تدمير ، بالرغم من قسوة هذه الأحكام ، وطغيانها في أكثر الأحيان ، كما أنها شديدة الردع إذا ما قورنت بأحكام الشريعة الإسلامية ، أو القوانين الوضعية الحديثة ^(٣) .

(١) رشاد العليمي ، القضاء القبلي في المجتمع اليمني ، عالم الكتب اليمنية ، بدون رقم الطبعة وتاريخها ، ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

وتعود أهمية العرف القبلي إلى عدة أمور:

- [١] يمثل القانون العام المتعارف عليه من قبل كل أفراد المجتمع القبلي .
- [٢] يمثل نظاماً اجتماعياً قديماً عرفته القبائل اليمنية منذ زمن طويل .
- [٣] يمثل نظاماً ثابتاً وقوياً يتبعه الناس بطريقة منظمة ، ويتضمن قواعد ومعايير محددة ، وله صفة الاحترام العام .
- [٤] يعمل على ضبط ورعاية القيم الروحية والخلقية من خلال ما يتضمنه من أحكام .
- [٥] يعمل على تماسك أفراد المجتمع القبلي ، وإيصال العدالة ، والإنصاف . .
- [٦] الحفاظ على العادات والتقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم .
- [٧] شعور القائم بهذا الصلح بالراحة النفسية حين ينهي مشكلة قائمة بين الناس ، كما يعتبرها رصيذاً يفتخر به في حياته وأجراً عند ربه ، وتاوياً لقوله تعالى: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨] .
- [٨] السهولة والسرعة في إنهاء الخصومات، على الرغم من طغيان أحكام العرف، وقوتها الشديدة في مضاعفة العقوبات والمصروفات الكبيرة التي يتحملها طرفا النزاع أثناء المحاكمة، إلا أن السرعة التي تتميز بها إجراءات مجالس الصلح القبلية جعلت الكثير من أفراد المجتمع يفضلون اللجوء إلى المحاكم القبلية (١) .

وهذه السرعة هي التي تجعل المواطن اليمني يلجأ إلى وسيلة الصلح التي يتم من خلاله تسوية النزاع بإجراءات فورية وسريعة ؛ فهذه السرعة تتناسب وطبيعة المواطن اليمني ، وخاصة القبائل اليمنية المتصفة بالعجلة ونفاد الصبر، وقد جعلت منه هذه الصفة إنساناً يتجاوز الإجراءات الشكلية للوصول إلى هدفه ، فهو يتضايق من الإجراءات الطويلة التي تتخذها المحاكم في حل قضاياهم ، بخلاف الصلح فهو

(١) القضاء القبلي في المجتمع اليمني ، ص ٧٩ .

وسيلة توفر لهم الوقت والجهد وتعمل على تحقيق رغباتهم ؛ فيتعلقون بالأعراف والتقاليد الموروثة عن أسلافهم . فهي تجارب الآباء والاجداد ؛ تحقق لهم الرغبات التي تخرجهم من كثرة الأخذ والرد ، والإجهاد عند شدة النزاع والخلاف ، فهم يحلّون خلافهم في إطار قواعد عرفية ، تعارف عليها الآباء ، وورثها الأبناء (١) .

فالعنصر السياسي القبلي ظل يحتل نفوذاً قوياً ، ويلعب دوراً مهماً في حياة الأفراد والجماعة نتيجة هذا كله ؛ ولعدم استقرار النظام القضائي والجزائي في اليمن إلا لفترة قريبة بعد صدور التشريعات المنظمة لجهاز القضاء ؛ لهذا فإن الصلح القبلي ، والمتمثل في اختيار طرف ثالث كان ولا يزال معمولاً به حتى الآن (٢) .



(١) محمد بن محمد علي السدسي ، نظرية العقوبة في الشريعة الإسلامية والأعراف القبلية ، صنعاء ، مركز الطباعة الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ٦٦ .

(٢) القضاء القبلي في المجتمع اليمني ، ص ٥٦ .

المبحث الرابع

أهمية إصلاح ذات البين من الناحية الواقعية

[١] تخفيف العبء عن القضاء :

قد يتم الصلح بين الخصوم قبل رفع الدعوى أمام القضاء ، وهذا العمل يخفف العبء عن العاملين في مجال القضاء الرسمي ، وصدق القائل :

لو أنصف الناس استراح القاضي وبات كلٌّ عن أخيه راضي (١)

[٢] تخفيف العبء عن الخصوم :

إن إنهاء النزاع بين الخصوم صلحاً فيه تخفيف كبير عنهم ، وذلك من خلال إجراءات الترافع بجلسة أو جلستين وسهولتها وإنهائها ، أما ما يجري في المحاكم فيها كثير من التعقيد والمشقة ، كما أنها تستغرق وقتاً وجهداً وتكاليف باهضة ، وفي هذا مشقة وتعب واستنزاف لجهودهم وأموالهم .

[٣] تحقيق العدالة :

إن حسم الخلاف بين طرفي النزاع عن طريق الصلح أدعى إلى الإنصاف وأدنى إلى تحقيق العدالة ، حيث إن المتخاصمين أعلم من غيرهم بمعرفة استحقاق كل منهم فيما يدعيه ، أو فيما يدعى عليه ؛ لأن كلا منهما يعلم في قرارة نفسه أين الحق ، ولمن هو الحق المتنازع عليه .

وهذا المعنى قد أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أم سلمة رضي الله عنها قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست (٢) ، ليس بينهما بيّنة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على

(١) مثل شعبي متداول .

(٢) درست : درس دَرَسًا وفَرَسًا ، عفا وذهب أثره . وتقادم عهده ، المعجم الوسيط ١ / ٢٧٩ .

نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها أسطاماً^(١) في عنقه يوم القيامة ، فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما : حقي لآخي . فقال رسول الله : أما إذ قلتما فاذهبا فافتسما ، ثم توخيا الحق ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه ،^(٢)

[٤] نشر الوعي الاجتماعي :

ذلك أنه يستاصل شافة الخصومة ، ويؤلف القلوب المتنافرة ، ويضع حداً لما تتركه الخصومات من أحقاد في النفوس ، وضغناء في الصدور .

[٥] إشاعة السلام بين أفراد المجتمع :

عندما يصطالح الناس ، وتزال العداوات والمخاصمات فيما بينهم ، ويحلُّ الوفاق محل الخلاف ؛ عند ذلك يأمن الناس بعضهم بعضاً ، ويحلُّ السلام الاجتماعي بين أفراد المجتمع .

[٦] تأليف القلوب :

لا شك أن الخصام يفرِّق المتحابين ، ويعمق بينهم العداوة والخلاف ، وتتنافر القلوب وتباغض ، فعندما يتم الإصلاح والتصالح ، والوفاق والتوافق ؛ تتآلف القلوب .



(١) الأسطام : المسعار، وهو حديدة عريضة الرأس ، تُحْرَكُ بها النار وتسعَّر. ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ٣٦٦ / ٢ .

(٢) رواه أحمد ٦ / ٢٢٠ ، ورواه أبو داود في كتاب (الأقضية) ، باب (في قضاء القاضي) ٣ / ٣١٠ رقم ٣٨٥٣ ، وابن ماجه ٢ / ٧٧٧ ، رقم ٢٣١٧ ، والترمذي ٣ / ٦٢٤ ، والنسائي ٨ / ٣٣ .

الفصل الثالث

حكم إصلاح ذات البين في الكتاب
و السنة و العرف القبلي في اليمن

-
- المبحث الأول : حكم إصلاح ذات البين في الكتاب .
 - المبحث الثاني : حكم إصلاح ذات البين في السنة .
 - المبحث الثالث : حكم إصلاح ذات البين في العرف القبلي .

obeikandi.com

الفصل الثالث

حكم إصلاح ذات البين في الكتاب و السنة و العرف القبلي

المراد بالحكم هو الأثر الذي يقتضيه خطاب الشارع في الفعل، أو الترك كالوجوب، والحرمة، والإباحة، والكراهية^(١)، فلو استعرضنا الآيات الواردة في كتاب الله والأحاديث في سنة رسول الله ﷺ لوجدنا أن الله - سبحانه - قد أمر بالإصلاح في خمسة مواضع في القرآن، وكذلك ورد الأمر في سنته ﷺ في أكثر من موضع .

البحث الأول

حكم إصلاح ذات البين في الكتاب

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال : ١] ، فالآية تصرح بأنه إذا شجر بينهم اختلاف ومالت النفوس إلى التشاحن^(٢) ؛ وجب عليهم أن يصلحوا ذات بينهم، وأن يستجيبوا لأمر الله، والأمر هنا جاء بعد اختلافهم ، ونزاعهم في حضرة رسول الله ﷺ .

فقد صور لنا الصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه^(٣) تلك الحالة ، فقال :

(١) محمد زكريا البراديس ، أصول الفقه ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، طبع سنة ١٩٨٣م ، ص ٤٧ .
(٢) الثعالبي ، تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ، ٢ / ٨١ ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

(٣) هو عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري الخزرجي ، كان أحد الأتقياء ، شهد بدرًا والمشاهد كلها ، وهو أول من ولي قضاء فلسطين ، مات بالرملة سنة ٣٤هـ ، وقيل : إنه عاش إلى سنة ٤٥هـ . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢ / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

" وساءت فيه أخلاقنا " (١) ؛ عند ذلك نزل القرآن يوضح خطورة الموقف ، فهو خلل في صفوف المؤمنين لا يسكت عنه القرآن دون معالجة وتوضيح ، وبيان الحكم فيه ، فقد أمرهم بالإصلاح فيما بينهم ،

وقال أبو حيان (٢) : " وأمر- تعالى - أولاً بالتقوى ؛ لأنها أصل الطاعات ، ثم بإصلاح ذات البين ؛ لأن ذلك أهم نتائج التقوى " (٣) .

وفي ذلك الوقت الذي تشاجر فيه الصحابة (٤) أي بسبب الغنائم ، قال الإمام أبو السعود (٥) " وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين، بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ؛ لإظهار كمال العناية بالإصلاح بحسب المقام ، وليندرج الأمر بالطاعة " (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥﴾ [الحجرات: ٩-١٠] . وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى (٧) ؛ فالسعي للإصلاح بين المتخاصمين

(١) رواه الإمام أحمد ، ٥ / ٣٢٢ / رقم (٢٢٨٠٥) . يُنظر : أبو القاسم جبار الله محمود الزمخشري ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، لبنان ، بيروت ، بدون رقم الطبعة وتاريخها ، ٣ / ١٤١ .

(٢) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان القرطبي الأندلسي ، أديب ، نحوي ، لغوي ، مفسر ، محدث ، مقرر ، مؤرخ ، ت ٧٥٤هـ ، من تصانيفه الكثيرة : البحر المحيط في تفسير القرآن ، تحفة الأديب بما في القرآن من الغريب وغيرها - معجم المؤلفين ١٢ / ١٣٠ .

(٣) محمد بن يوسف الأندلسي ، تفسير البحر المحيط ، ٢ / ١٧١ ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

(٤) محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، المعروف بتفسير الطبري ، ضبط وتعليق : محمود شاکر ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م ، ص ٤٥٦ .

(٥) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، ولد سنة ٨٩٨هـ ، مفسر وشاعر من علماء الترك المستعربين ، ت ٩٨٢هـ ، الاعلام للزيركلي ٧ / ٥٩ .

(٦) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، ٢ / ٣٤١ .

(٧) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، فتح القدير ، ٥ / ٦٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ طبع .

والمتنازعين أمر قد أوجبه القرآن فيه تُجمع الكلمة، وتصلح العيوب، وتُسدُّ الثغرات، وبالتالي تقوى روابط الأمة (١).

قال المراغي (٢): " وهذا الإصلاح واجب شرعي، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها " (٣) قال السعدي (٤): " إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين كان على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، وسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك (٥)، كما ورد الأمر بالإصلاح في قوله تعالى على لسان موسى ﷺ أمراً أخاه هارون ﷺ بالإصلاح، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٢].

وأمر الله واضح في الدعوة إلى إصلاح ذات البين في مواضع كثيرة، حيث أمر بها في الأسرة بين الزوجين، وبين لهم الطريق السليم بقوله تعالى في سور النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٣٥) [النساء: ٣٥]، وأمر به في الأمة وبين الطائفتين والحزبين (٦) كما في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلَا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩].

فمن خلال الآيات السابقات يتضح أن الشارع قد رَغِبَ في إصلاح ذات البين،

(١) إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان ٩ / ٧٧، المكتبة الإسلامية لصاحبها رياض الشيخ، بدون تاريخ طبع.

(٢) أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر تخرُّج من دار العلوم سنة ١٩٠٩م، كان مدرس الشريعة الإسلامية بها، وكلي نظارة بعض المدارس وعيِّن استاذاً للغة العربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردن بالخرطوم، له كتب عدة، مات سنة ١٣٧١هـ. الأعلام للزركلي ١ / ٢٥٨.

(٣) أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي ٣ / ٣٢٩.

(٤) عبد الرحمن بن ناصر السعدي النجدي، محدث ومفسر، فقيه أصولي، متكلم، واعظ، ولد في عنيزة القصيم بنجد، سنة ١٣٠٧هـ، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ، معجم المؤلفين ١٣ / ٣٩٦.

(٥) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكرم الرحمن في تفسير كلام المنان ٧ / ١٣٢.

(٦) محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص ٥٦٣.

ودعا إليه ، وأمر به ، وحثُّ على إصلاح ذات البين ، وأن السكوت عن إصلاح ذات البين عند التنازع يُعدُّ إثمًا يُغضبُ الله ويُفسدُ أحوال الأمم ، فإن سكوت الناس عن إصلاح ذات بينهم مع القدرة عليه أشدُّ إثمًا ، وأعظمُ ذنباً (لأنَّ السَّكُوتَ عن الحقِّ شيطانٌ أخرس) (١) .



(١) ابن قيم الجوزية ، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، مكتبة المؤيد، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ،

البحث الثاني

حكم إصلاح ذات البين في السنة

ما رواه سهل بن سعد ^(١) رضي الله عنه : أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فاخبر الرسول ﷺ بذلك فقال: (اذهبوا بنا نصلح بينهم) ^(٢) .
وعن كعب بن مالك ^(٣) أنه تقاضى ابن أبي حدرد ^(٤) ديناً كان له عليه في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعهما النبي ﷺ وهو في بيته ، فخرج إليهما فنادى: يا كعبُ . فقال: لبيك يا رسول الله ، قال: ضع من دينك هذا وأوماً إليه ، أي: الشطر ^(٥) ، والمراد بهذا الأمر الواقع منه ﷺ الإرشاد إلى الصلح ^(٦) ، قال ابن بطال ^(٧): "هذا الحديث أصل لقول الناس: خير الصلح على الشطر" ^(٨) ،

- (١) هو سهل بن سعد بن مالك الأنصاري من مشاهير الصحابة ، يقال كان اسمه حزنًا فغيّره النبي ﷺ ، روى عن النبي ﷺ ، ومات عنه النبي ﷺ وهو ابن عشرين ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣ / ١٤٠ .
- (٢) رواه البخاري في كتاب الصلح ، باب (قول الإمام لاصحابه: اذهبوا بنا نصلح) ، حديث ٢٦٩٣ ، صحيح البخاري مع شرح فتح الباري ٥ / ٣ .
- (٣) كعب بن مالك بن أبي بن كعب أبو عبد الله الأنصاري السلمي ، كانت كنيته في الجاهلية «أبا بشير» فكناه النبي ﷺ «أبا عبد الله» ، شهد العقبة وبايع بها ، وتخلف عن بدر ، وشهد أحدًا وما بعدها ، وتخلف عن تبوك ، وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم ، قال البغوي : «بلغني أنه مات بالشام في خلافة معاوية» . الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر ٥ / ٣٠٨ .
- (٤) عبد الله بن أبي حدرد ، أول مشاهده الحديبية ، ثم خبير ، مات سنة إحدى وسبعين للهجرة ، وله إحدى وثمانون سنة . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤ / ٥٤ .
- (٥) رواه البخاري في كتاب الصلح ، باب «الصلح بالدين» ، حديث ٢٧١٠ . الفتح لابن حجر ٥ / ٣١١ .
- (٦) محمد بن علي الشوكاني ، نيل الأوطار ، ٨ / ٣١٧ ، المنصورة ، مكتبة المنصورة أمام جامع الأزهر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
- (٧) هو أبو الحسن ، علي بن خلف بن بطال البكري ، القرطبي ثم البلسني ، ويعرف بابن اللجام ، كان من أهل العلم والمعرفة ، عني بالحديث العناية التامة ، شرح «الصحيح في عدة أشعار» ، توفي في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة . ينظر : سير اعلام النبلاء ، ١٨ / ٤٧ .
- (٨) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ٥ / ٣٠٩ ، بيروت ، لبنان ، دار المعرفة ، مراجعة الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ آتَاهُ آخُوهُ مُتَنَصِّلاً فَلْيَقْبَلْ ذَلِكَ مُحَقَّقاً كَانَ أَوْ مَبْطُلاً، فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ الْحَوْضُ) (١).

وانطلاقاً مما سبق ذكره من الآيات والأحاديث، فقد فهم العلماء فهومات مختلفة نوردها، وهي على قولين:

القول الأول: ذهب بعض العلماء (٢) إلى: أن السعي لإصلاح ذات البين قد يكون واجباً عند تعيين مصلحته، وقد يكون محرماً، أو مكروهاً؛ لاستلزامه مفسدة.

القول الثاني: ذهب جمهور العلماء (٣) إلى: أن إصلاح ذات البين والسعي له مندوب.

القول الراجح: إن حكم إصلاح ذات البين يختلف باختلاف حجم المشكلة والنزاع القائم، فقد يكون واجباً إذا اشتد، وزاد الفساد، والنزاع، والقتل، والاعتتال، وقد يكون محرماً إذا كان على غير العدل والإنصاف كأن نرسي الظلم لشخص على آخر، أو إعطاء القوي حق الضعيف، ويكون مندوباً إذا ضعُف، أو قلُّ فساد النزاع (٤).

(١) رواه الحاكم في كتاب «البر والصلة»، المستدرک بدون طبع أو تاريخ، ٤ / ١٥٤، ضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم (٢٠٤٣)، وضعيف الجامع رقم (٥٣٢٧).

(٢) سليمان بن عمر بن محمد البجيرمي الشافعي، حاشية البجيرمي على المنهاج، ٣ / ٤، مصر، مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الأخيرة، ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م. وينظر: التاج والإكليل لهتصر خليل بن محمد بن يوسف ابن أبي القاسم، مكتبة النجاح، ٥ / ٨١.

(٣) قليوبي وعميرة، شرح العلامة جلال الدين المهلي على منهاج الطالبين، ٢ / ٣٠٦، مصر، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ طبع، يُنظر: أحمد بن أحمد الصاوي المالكي، بلغة السالك لأقرب المسالك، طبع بدار إحياء الكتاب العربي، بدون رقم الطبعة وتاريخها، ٢ / ٣٠٦.

(٤) يُنظر: سليمان البجيرمي حاشية البجيرمي علي المنهاج - و ينظر بلغة السالك ٢ / ٣٦٠.

المبحث الثالث

حكم إصلاح ذات البين في العرف القبلي

تَما جرت عليه العادة والعرف في المجتمع اليمني ، وخاصة عند أبناء القبائل المسارعة إلى إنهاء الخصومات التي تقع على مرأى ومسمع منهم ، فإنهم يبادرون بالتدخل السريع ، ويقوم الحاضرون في مكان الشجار بإنهاء أي مشكلة ، ففي حالة حدوث أي خصومة بين فرد وآخر ، أو قبيلة وأخرى ، فإن الحاضرين يتدخلون لحل هذا النزاع وإنهاء أي فتنة ، أو مشادة ، فيتحتّم عليهم انطلاقاً من القاعدة العرفية التي تقول : (الثالث واسطة) (١) ، أن يكون الخارج عن الخصومة ولو كان أخاً للخصم ، فواجبٌ عليه التدخل لإنهاء المشكلة وإصلاح ذات البين إن استطاع ، وإلا فعليه بالإجراءات العرفية المعروفة وهي أخذ (العدال) ، أي أخذ سلاح الطرفين ليُلزم الأطراف بقبول الصلح ، وتقييد المتخاصمين من أي اعتداء ، وإذا حصل الاعتداء ، فإن العقوبة العرفية القبليّة تكون مضاعفة ، وفي هذا يقول القاضي محمد بن علي السدّمي " : ففي حالة ما تثار خصومة بين قبيلة ، أو بين فخذ ، أو بين فرد وفرد ، على من كان حاضراً قبل حصول النزاع من فتنة أو مشادة ، عليه واجبات انطلاقاً من القاعدة العرفية السابقة الذكر .

وبعد هذا الإجراء عليه أن يُلزم المتخاصمين باختيار مُحكّم (شخص ، أو أكثر) ، انطلاقاً من القاعدة التي تقول : (القصر والجر) (٢) ، وبحسب مفهوم هذه القاعدة فإن من حضر خصومة أو نزاعاً بين خصمين عليه أن يُلزم الطرفين باختيار مُحكّم ، شخصاً كان أو أكثر ، فرداً أو قبيلة (٣) . وقد يختلفان ؛ إذ يختار كل

(١) محمد السدّمي ، نظرية العقوبة في الشريعة الإسلامية والاعراف القبليّة ، مركز الطباعة السريعة ، الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، ص ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

واحد من يميل إليه قلبه ويطمئن إليه ، ويكون ذلك التحكيم مكتوباً في بعض المنازعات ، ولا يمنع أن يكون هذا الاتفاق غير مكتوب (١) ، وعندما يتم اختيار المصلحين عن رضا فعليهم قبول ما تُوصَل إليه من الأحكام والقرارات ، فالذي يظهر أن الصلح في العرف القبلي يكون واجباً عند حدوث الشُّجار والخصام ، وعلى الحاضرين حال الخصام التدخُّل ، وكذلك مشايخ القبائل عليهم إنهاء الخصام الذي قد يؤدي إلى قتل واقتتال ، وسفكٍ للدماء ، وتخريبٍ للممتلكات ، وغالباً ما يؤدي عدم الاهتمام إلى مزيد من الحروب التي تؤدي إلى الانقسامات والتمزقات في صفوف الوحدات الاجتماعية والسياسية القبلية ، وتضاعف من الخسائر الناتجة عن ذلك ، والمتمثلة في تزايد الإصابات ، وأعداد القتلى بين الأطراف المتنازعة ، والإضرار بالممتلكات ، وتزداد حدة النزاع والآثار المترتبة عليه عندما يكون القاتل والقتيل ينتميان إلى نفس الوحدة السياسية القبلية ، فإضافةً إلى الضعف الذي قد تتعرض له قوة تلك الوحدة الجماعية، نجد أن علاقات التعاون والتضامن والوحدة تتعرض هي الأخرى للانقسامات ، ولذلك تقوم الوحدات القبلية بالتوسط بين المتحاربين ، حيث تقوم بتحديد فترة صلح مؤقتة لفترة زمنية معينة ، قد تكون أسبوعاً ، أو شهراً ، أو سنة (٢) .



(١) رشاد العلمي ، القضاء القبلي في المجتمع اليمني ، ص ١٠١ .
 (٢) فضل علي أحمد أبو غانم ، البنية القبلية في اليمن بين الاستمرار والتغيير ، ص ٢٦٧ ، صنعاء ، عالم الكتب اليمنية ، مطبعة الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .

الفصل الرابع

مشروعية إصلاح ذات البين وفضله

المبحث الأول : مشروعية إصلاح ذات البين

المبحث الثاني : فضل إصلاح ذات البين

obeikandi.com

الفصل الرابع

مشروعية إصلاح ذات البين وفضله

في هذا الفصل سوف نبين مشروعية إصلاح ذات البين، وذلك من خلال النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وكذا إجماع الفقهاء والعقلاء، ثم الحديث عن فضله، وقد قسمتُ هذا الفصل إلى مبحثين .

المبحث الأول

مشروعية إصلاح ذات البين

[١] في القرآن الكريم :

إن مشروعية إصلاح ذات البين من الأحكام الشرعية الظاهرة التي لا تفتقر للاستنباط أو الاجتهاد ، وذلك لكثرة ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الآمرة بالإصلاح عند فساد ذات البين ، التي تطرأ على العلاقات البشرية بعضهم ببعض ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١ ﴾ [الأنفال : ١] ، قال العلامة أبو السعود ^(١) : وتوسيط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ؛ لإظهار كمال العناية بالإصلاح ^(٢) ، فإصلاح ذات البين يحتاج إلى وسيلة ، ووسيلته - هنا - هي تقوى الله ، فالتقوى هي الدافع للإصلاح .

(١) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، المولى أبو السعود ، ولد عام ٨٩٨هـ ، مفسر وشاعر من علماء الترك المفسرين ، صاحب تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ت / ٩٨٢هـ . الاعلام للزيركلي ٧ / ٥٩ .
(٢) أبو السعود محمد بن محمد العمادي ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، ٢ / ٣٤١ ، دار المصنف ، القاهرة ، بدون رقم الطبعة وتاريخها .

" فقد جعل الله التقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله ﷺ من لوازم الإيمان وموجباته ؛ ليعلمهم ان كمال الإيمان موقوف على التوافر عليها" (١) .

وقال الإمام الشوكاني-رحمه الله-: تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول لا يكمل الإيمان بدونهما ، بل لا يثبت أصلاً من لم يمتثلها ، فإن من ليس بمتقى وليس بمصلح وليس بمطيع ، ليس بمؤمن" (٢) .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩] . وهذه الآية تمثل قاعدة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق ، ثم لإقرار الحق والعدل والصلح ، والارتكاز في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح (٣) . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨] .

دلّت هذه الآية على مشروعية الصلح وعلو مكانته (٤) في الشريعة الإسلامية .

قال الإمام الكسائي-رحمه الله- (٥) : " وصف الله - عز شأنه - جنس الصلح بالخيرية ، ومعلوم أن الباطل لا يُوصف بالخيرية ، فكان كل صلح مشروعاً بظاهر هذا النص إلا ما خصّ بدليل" (٦) .

فالآية تفيد أن الصلح مشروع ، حيث إن الله تعالى وصف الصلح بأنه خير ، ولا يوصف بالخير إلا ما كان مشروعاً وماذوناً فيه .

(١) محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف ٢ / ١٤١ .

(٢) محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير ٢ / ٢٨٣ .

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٦ / ١٣٥-١٣٦ .

(٤) علي حسب الله ، أصول التشريع الإسلامي ، مصر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٥٢ .

(٥) أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء ، له مؤلفات كثيرة منها: كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، توفي سنة ٥٨٧هـ . تاريخ التشريع الإسلامي للحصري ، ص ٢٦٠ .

(٦) علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني ، كتاب بدائع الصنائع ، ٦ / ٤٠ ، بيروت ، لبنان ، دار الكتاب

العربي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢-١٩٨٢ م .

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)﴾ [الأنفال: ٦١] ، ففي الآية الكريمة دلالة على مشروعية المصالحة والمواذعة إذا طلبها المشركون ومالوا إليها ، فإن كان في الصلح مصلحةٌ ، فلا بأس أن يبتدئ به المسلمون إذا احتاجوا إليه ^(١) .

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - ^(٢) : "إن أدلة الكتاب والسنة دلت على مشروعية مطلق الصلح ، فمن ادعى عدم مشروعية فرد من الأفراد ^(٣) فعليه الدليل " ^(٤) .

قال الإمام القرطبي : " وإن كان للمسلمين مصلحةٌ في الصلح لنفع يجتلبونه ، أو ضرر يدفعونه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه " ^(٥) .

[٢] في السنة النبوية :

لقد دعت السنة النبوية في أحاديث ووقائع كثيرة إلى مشروعية إصلاح ذات البين ، أذكر منها جملة من الأحاديث النبوية الدالة على مشروعية الإصلاح :

[١] ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ^(٦) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حراماً حلالاً ، أو أحل حراماً) ^(٧) ، والحديث يبين مشروعية الإصلاح عموماً ما لم يكن فيه إحلال الحرام ، أو تحريم الحلال .

- (١) يُنظر الطبري ، جامع البيان ، ١٤ / ٤٠ ، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٦٩ .
(٢) هو الإمام المجهد محمد بن علي للشوكاني ، ولد يوم الإثنين ٢٨ من شهر ذي القعدة من سنة ١١٧٣ هـ في هجرة شوكان ، البدر الطالع ٢ / ٢١٥ .
(٣) أي فرد من أفراد المعاملات أو الأحكام " حاشية عقود الزجر ، محمد صبحي حلاق ، ص ٩١ .
(٤) محمد بن علي الشوكاني ، عقود الزجر في جيد مسائل علامة ضد ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ص ٩١ .
(٥) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٨ / ٢٧ ، بدون رقم الطبعة وتاريخها .
(٦) أبو هريرة رضي الله عنه : هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، كان إسلامه بين الحديبية وخيبر ، قدم المدينة مهاجراً وسكن الصفة ، واجتمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حفظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه عن رسول صلى الله عليه وسلم ، توفي سنة سبع وخمسين للهجرة وله ثمان وستون سنة ودفن في المدينة - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٧ / ١٩٩ - ٢٧٠ .
(٧) رواه الترمذي في كتاب الأحكام ، باب ما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلح بين المسلمين ، حديث (١٣٥٢) ، سنن الترمذي ٣ / ٦٣٤ ، وأبو داود ، حديث ٣٥٩٤ ، ٣ / ٣٠٤ .

وعن عمرو بن شعيب (١) عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : كتب كتاباً بين المهاجرين والانصار على أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفتدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين (٢) .

وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل سلامي (٣) من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الناس صدقة) (٤) .

وهذا الحديث من أظهر الأدلة على مشروعية إصلاح ذات البين، قال الحسن : ولقد سمعت أبا بكر (٥) يقول : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي (٦) إلى جنبه وهو يُقْبِلُ على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : " إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " (٧) ، فهذا الحديث وما سبقه من الأحاديث حجة واضحة على مشروعية إصلاح ذات البين على كل قادر على إنهاء الخصام والشقاق ونزع فتيل الفتنة وإطفائها في مهدها ، حتى يتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ،

(١) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقيه أهل الطائف ومحدثهم ، مات سنة ثمانين عشرة ومائة في الطائف . سير أعلام النبلاء ٥ / ١٦٥ - ١٧٧ .

(٢) رواه أحمد واللفظ له ١ / ٢٧١ ، والهيتمي في الجمع ، ٤ / ٢٠٦ ، وأشار إلى رواية أحمد وقال فيه الحجاج ابن أرطاة وهو مدلس ولكنه ثقة ، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (١١ / ١٢٥) ، ٦٩٠٤ / ٢٤٤٣ : إسناده صحيح وأشار إلى رواية ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً .

(٣) السلامي : جمع سلامة وهي الأتملة من أنامل الأصابع ، والمعني : على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة . مجد الدين المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٣٩٦ .

(٤) الترمذي ٥ / ٢٦٣٠ ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٥) أبو بكر الشافعي الطائفي ، مولى النبي ﷺ ، اسمه : نفع بن الحارث وقيل نفع بن سروح ، فرأى النبي ﷺ وأسلم على يده وأعلمه أنه عبد فاعتقه ، مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان بالبصرة سنة إحدى وخمسين ، وصلى عليه أبو هريرة الأسلمي الصحابي . ينظر : سير أعلام النبلاء ٣ / ٩ - .

(٦) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، أبو محمد خامس الخلفاء الراشدين ، ولد في شعبان سنة ٣ هـ ، وتوفي سنة ٥٠ هـ ربيع الأول في المدينة ، كان يشبه جده ﷺ . سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٤٥ ، ينظر : الاعلام للزركلي ٢ / ١٩٩ .

(٧) البخاري ، الفتح ٥ / ٢٧٠٤ .

ودلالة الآية واضحة في الأمر بالوفاق والاتفاق وعدم الفرقة ، وهذه من نعم الله التي يستحق بموجبها الذكر . بل إن الصلح والإصلاح مطلوبان بين المسلمين والكفار على أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، دليل ذلك ما فعله الرسول ﷺ مع عيينة بن حصن في غزوة الخندق ^(١) ، حيث قال له : (أرايت لو جعلت لك ثلث ثمار الأنصار أترجع بمن معك من غطفان وتخذل بين الأحزاب) ^(٢) ، بل لقد دلت السنة النبوية في أحاديث صحيحة ووقائع كثيرة على مشروعية إصلاح ذات البين بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً ، أو أحل حراماً) ^(٣) ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل سلامي من الناس عليه صدقه ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقه) ^(٤) ، وقوله ﷺ : (اذهبوا بنا نصلح بينهم) ^(٥) ، بل إن رسول الله ﷺ كان يبادر إلى الخروج للسعي لإصلاح ذات البين عندما يسمع خلافاً ، أو خصاماً بين اثنين ، ويشير إلى الصلح وإنهاء الخصومة ، كما أشار على كعب أن ضع الشطر ، وهذا ما يدل عليه حديث كعب بن مالك : (يا كعب ،

(١) أخرجه أبو عبد الله محمد بن سعد في الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ، بدون رقم الطبعة وتاريخها . ٢١ / ٧٣ ، وعبد الرزاق في المنصف ٥ / ٣٦٧ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٤ / ٤٣٠-٤٣١ ، تلخيص الحبير لابن حجر ٤ / ١٤ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب (الأحكام) باب : (ما ذكر عن رسول الله ﷺ في الصلح بين الناس) ، حديث (١٣٥٢) .

(٣) رواه البزار والطبراني من طريق محمد بن عمرو ، وحديثه حسن وبقية رجالهما ثقات . ينظر : مجمع الزوائد للإمام الهيثمي ٦ / ١٣٦ ، وسكت عليه الشيخ الألباني في تخريجه لفقهِ السيرة للشيخ الغزالي ، ص ٢٢٥ ، فعمله لا ينزل عن درجة الحسن . ينظر : أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، ٤ / ١٠٦ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م .

(٤) رواه البخاري في كتاب (الصلح) باب (فضل الإصلاح بين الناس والمدل بينهم) حديث (٢٧٠٧) ، صحيح البخاري مع شرح فتح الباري ٥ / ٣٠٩ ، ورواه مسلم في كتاب المسافرين باب (إستحباب صلاة الضحى) حديث (١٦٦٨) ، النووي ، شرح صحيح مسلم ٥ / ٢٤٠ ، ورواه أبو داود في كتاب الصلاة باب (صلاة الفجر) حديث ١٢٨٥ و ١٢٨٦ ، سنن أبي داود ٢ / ٢٦-٢٧ ، رواه أحمد في المسند ٢ / ٣١٦ .

(٥) رواه البخاري في كتاب (الصلح) باب (قول الإمام لأصحابه : اذهبوا بنا نصلح) حديث (٢٦٩٣) ، صحيح البخاري مع شرحه ، فتح الباري ٥ / ٣٠٠ .

فقال : لبيك يا رسول الله ، قال : ضع من دينك هذا - وأوماً إليه - (أي الشطر)
قال : قد فعلت يا رسول الله ، قال : قم فاقضه (١) .

[٣] في الإجماع :

أجمع الفقهاء (٢) على مشروعية الصلح والإصلاح في الجملة ، وإن اختلفوا في بعض صورته وأنواعه ، فهامو البهوتي (٣) يوضح أن الصلح مجمع عليه ، فقال : (وهو ثابت بالإجماع) (٤) وهذا الإجماع الحاصل من الفقهاء مبني على الكتاب والسنة الصحيحة الداعية إلى إصلاح ذات البين ، قال ابن رشد (٥) : " واتفق المسلمون على جوازه على الإقرار ، واختلفوا في جوازه على الإنكار " (٦) ، وقال ابن قدامة المقدسي (٧) بعد ذكره لكثير من أنواع الصلح ما نصه : (وأجمعت الأئمة على جواز الصلح في هذه الأنواع التي ذكرناها) (٨) ، فالإصلاح جائز عن إقرار وإنكار وسكوت إن لم يؤد إلى حرام (٩) . ويُستدل على ذلك بمشورة عبد الله بن

- (١) رواه البخاري في كتاب (الصلح) باب (الصلح بالدين) ، حديث (٢٧١٠) ، صحيح البخاري مع فتح الباري لأبن حجر ٥ / ٣١١ ، ورواه مسلم ، باب (استحباب الوضع من الدين) حديث (٣٩٦١) ، صحيح مسلم مع شرحه للنووي ١٠ / ٤٦٤ ، ورواه أبو داود في كتاب الأفضية ، باب الصلح ، حديث (٣٥٩٥) ، وصن أبي داود ٣ / ٣٠٤ ، ورواه أحمد في أحاديث كعب بن مالك ، المسند ، لأحمد بن حنبل ٦ / ٣٩٠ .
- (٢) قليوبي وعميرة، شرح العلامة جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين ٢ / ٣٠٦ ، وشرح منتهى الإرادات ١ / ٢٦١ .
- (٣) هو منصور بن صلاح الدين البهوتي ، شيخ الحنابلة بمصر ، له كتب منها : الروض والمرع شرح زاد المستنقع ، وكشاف القناع وغيره من المراجع . الأعلام للزركلي ٧ / ٣٠٧ .
- (٤) منصور بن يونس البهوتي ، شرح منتهى الإرادات ، ٢ / ٢٦٠ ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ طبع .
- (٥) وهو محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي ، من أهل قرطبة ، ولد سنة عشرين وخمسائة للهجرة ، وتوفي سنة خمس وتسعين وخمسائة . يُنظر : الأعلام للزركلي ٥ / ٣١٦ .
- (٦) محمد بن أحمد بن رشد ، بداية المهتد ونهاية المقتصد ، ٢ / ٣٥٦ ، دار التوفيق النموذجية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .
- (٧) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الخطاب رحمته الله ، ويُعرف بالموفق ، ولد في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسائة بقرية (جماعيل) وهي قرية تقع في جبل نابلس بفلسطين المحتلة ، وتقدر المسافة بين نابلس والقدس بحوالي سبعين كيلو ، ينظر طبقات الحنابلة ١٣٣ ، وشذرات الذهب ، ٥ / ٧١ .
- (٨) ابن قدامة ، المغني ، ٤ / ٥٢٧ ، مكتبة الجمهورية العربية ومكتبة الكبار الأزهرية ، القاهرة ، بدون رقم الطبعة وتاريخها .
- (٩) أحمد بن أحمد الصاوي المالكي ، بُلغة السالك لأقرب المسالك ٢ / ٦٤٦ .

مسعود لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في حادثة مقتل رجل ، قبل أحد ورثته الدية ، فيما رفضها الآخر وطلب القصاص ، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (أرى هذا قد أحياه ، فلا يملك الآخر أن يميت ما أحياه) فأخذ عمر بقوله ، وكان ذلك بحضور الصحابة من غير تكبير من أحد ، فحل محل الإجماع ^(١) .

[٤] في العقل :

فالعقل السليم يستحسن الصلح والإصلاح بين الناس ؛ لأن الصلح خير ، وهو رافع لنزاع واقع ، أو متوقع بين خصمين ، أو طائفتين ، أو قبيلتين ، أو غير ذلك ، والنزاع سبب الفساد ، فالصلح رافع لفساد واقع ، أو متوقع بين المؤمن ، إذ أكثر ما يكون الصلح عند النزاع ، والنزاع سبب الفساد ، والصلح يرفعه ويهدمه ؛ فكان الصلح من أجل المحاسن ^(٢) .



(١) عثمان بن علي الزهلي ، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ٦ / ١١٤ .

(٢) أبو عبد الله بن عبد الرحمن البخاري ، محاسن الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، بدون

تاريخ طبع ، ص ٨٦ .

البحث الثاني

فضل إصلاح ذات البين

إن ديننا الحنيف يهدف إلى إصلاح ذات البين ، ويسعى له ، ويرغب فيه ، ويبين فضله على سائر العبادات الطوعية ، كل ذلك ليدعو الناس بكل فئاتهم وشرائحهم إلى السعي الجاد والإرادة القوية ، والرغبة في حصول الأجر والثواب من عند الله جراء ما يبذلونه في التوفيق بين المتخاصمين ، ومع كثرة هذه النصوص ووضوحها ، واستنهاضها للمؤمنين ؛ كي يسعوا للصلح والإصلاح ، لكننا نجد كثيراً من الناس غافلين عن هذا الفضل العظيم ، بل وصل الحال إلى أهل الفضل والتقوى والصلاح ، بل تجاوز ذلك حتى وصل إلى عليّة القوم وفضلائهم من العلماء ، والدعاة إلى الله ، فلو حصل خصام بين بعضهم البعض لم يتداركوا الأمر ، ويصلحوا ما فسد بينهم ، ويردموا الهوة التي أحدثها الشيطان بينهم ، أو بين غيرهم ممن هم دونهم ؛ كل ذلك مع زهدهم ، وكثرة تطوعهم في الصيام ، وشغفهم بالصلاة والقيام ، وجودهم بالصدقة بدافع القرية إلى الله - عز وجل - ، ونيل رضاه ، فهؤلاء يغيب عن ذهنهم فضل إصلاح ذات البين ، وأنه أفضل القربات إلى الله وكسب رضاه ، فعندما غاب هذا عن أذهان الخاصة، والعامة وجدنا الشقاق والخلاف وتقطع أوامر القربى، وكثرة الخصام بين الناس؛ كل ذلك على حساب وحدة المجتمع والامة ، فكم من أسرة تشتت شملها، وانهار كيانها العائلي بسبب خلاف بسيط كان بالإمكان معالجته لو بذل أهل الخير والصلاح الجهد لتقريب وجهات النظر ، وإطفاء نار الفتنة، والسعي بين المتخاصمين لقبول الصلح ؛ لذا فإننا بحاجة أولاً أن نذكر بما ورد في كتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنة رسوله ﷺ حتى تتبين للناس أهمية فضل إصلاح ذات البين .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ [الانفال : ١] .

تبين هذه الآية أن إصلاح ذات البين يحتاج إلى وسيلة ، ووسيلته هنا هي تقوى الله ، فالتقوى هي الدافع للإصلاح ، فقد جعل الله التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته ؛ ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوافق عليها ^(١) وتوسيط الأمر بالإصلاح بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ، ورسوله ؛ لإظهار كمال فضل إصلاح ذات البين ^(٢) . قال الإمام الشوكاني : " تقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول لا يكمل الإيمان بدونهما ، بل لا يثبت أصلاً لمن لم يمثلها فإن من ليس بمتمتع وليس بمطيع لله ورسوله ، ليس بمؤمن " ^(٣) .

فإصلاح ذات البين من لوازم الإيمان وموجباته ، والإصلاح يكون بالوافق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفوق ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلَوْا فَلَا ضَرْحًا لِبَيْنِهِمَا ﴾ [الحجرات : ٩] ، هذه الآية تمثل قاعدة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق ، ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح ، والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح ^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء : ١٢٨] ، قالوا معناه : جنس الصلح خير ، فيعلم أن جميع أنواع الصلح حسن ؛ لأن فيه إطفاء الثائرة بين الناس ، ورفع المنازعات الموبقات عنهم ^(٦) ، وكل ذلك يدل دلالة واضحة على فضل إصلاح ذات البين .

وقال تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

(١) محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف ١١٣ / ٣ .

(٢) محمود شلتوت ، تفسير القرآن الكريم ، ص ٥٦٣ .

(٣) محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير ٢ / ٢٨٢ .

(٤) محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الكريم ، المشهور بتفسير المنار ، ٩ / ٥٨٦ ، دار المعركة للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون رقم الطبعة وتاريخها .

(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٦ / ١٣٥ - ١٣٦ .

(٦) عثمان بن علي الزلمي ، تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ٢ / ٢٩ - ٣٠ ، للطبعة الاميرية ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٣٠ هـ .

فقد وعد الله القائمين بإصلاح ذات البين بالاجر العظيم والنعيم المقيم (١) جزاءً لما يبذلون من جهد ووقت للإصلاح بين المتخاصمين فيما وقع بينهم، قال القرطبي (٢) في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عام في الدماء والاموال والأعراض، وفي كل شيء يقع النزاع والاختلاف فيه بين المسلمين، وفي كل كلام يراد به وجه الله تعالى وفي الخير (٣).

والإصلاح مع أنه من المعروف إلا أنه خص بالذكر؛ لبيان فضله وعلو شأنه، إذ به يتألف الناس، وتجمع كلمتهم، ويلتئم شملهم، فالمصلحة له أجر المجاهد في سبيل الله، وهذا ما فهمه محمد بن كعب القرظي (٤)، حين سأل رجلاً أين كنت؟ فقال: أصلحت بين قوم، فقال محمد بن كعب: "أصبحت لك مثل أجر المجاهدين" (٥) ثم قرأ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ﴾. قال الطبري (٦) عند تفسيره لهذه الآية: «هو الإصلاح بين المتباينين والمتخاصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما ليرجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله وأمر به» (٧). وعن أبي هريرة (٨) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما عمل ابن آدم شيئاً

(١) محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص ٥٦٣.

(٢) محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الحنزلي المالكي أبو عبد الله القرطبي، مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان، قال الذهبي: "إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة إطلاعه ووفور فضله، مات بمحنة بني خصيب من الصعيد الأدنى سنة إحدى وسبعين وستمائة، طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٩٢.

(٣) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٣٨٤.

(٤) محمد بن كعب بن سليم بن أسد، أبو حمزة القرظي المدني، ثقة، عالم، من الثالثة، ومات سنة عشرين ومائة، وقيل قبل ذلك. التقريب، ص ٣١٦.

(٥) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين، ٢ / ٦٨٥، مكتبة الكليات الأزهرية، طبعة جديدة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

(٦) الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر المفسر الإمام، ولد في أمل طبرستان، واستوطن ببغداد وتوفي فيها، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين وتوفي سنة عشر وثلاثمائة. ينظر سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ١٤ / ٢٦٧، والأعلام للزركلي، جزء ٦، وأبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية ١١ / ١٤٥.

(٧) الطبري، جامع البيان، ٥ / ٢٧٦.

(٨) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، أسلم عام خيبر وشهداها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه وطلب عليه رغبة في العلم، وكان أحفظ أصحاب الرسول ﷺ، توفي بالمدينة سنة سبع وخمسين، وقيل تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين، الاستيعاب، ٤ / ٢٠٢.

أفضل من الصلاة ، وإصلاح ذات البين ، وخلق حسن " (١) .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص (٢) رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أفضل
الصدقة إصلاح ذات البين " (٣) .

وعن أم الدرداء (٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه (٥) قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا
أخبركم بأفضل من درجة الصوم والصلاة والصدقة ، قالوا : بلى ، قال : إصلاح
ذات البين ، وفساد ذات البين الخالقة) (٦) .

وقد أمر الرسول ﷺ كعب بن مالك فقال : (ضع من دينك هذا وأوما إليه ،
أي الشطر) (٧) .

قال الشوكاني : " وفيه فضيلة الصلح وحسن التوسط بين المتخاصمين " (٨) ، فلا
شك أن إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام (٩) ، فهذه النصوص
الشرعية تبين فضل إصلاح ذات البين ، وأنها أعلى درجة من صيام التطوع وصلاة
النافلة وصدقة البر ، فهنيئاً لمن كان همه إصلاح ذات البين ؛ لأن فساد ذات البين هي
الخالقة التي تخلق الدين .

- (١) رواه البخاري في التاريخ الكبير ، ١ / ٦٣ .
(٢) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي ، وهو أحد العباد الفقهاء ، اشتهر أنه من
كتبة الوحي ، عمي في آخر عمره ، مات بالشام سنة ٥٦ هـ ، قال ابن حجر مات في ذي الحجة ليالي الحررة على
الاربع وما زال في الطائف على الاربع . يُنظر : الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢ / ٣٥١-٣٥٢ ،
وتقريب التهذيب ، ١ / ٥١٧ .
(٣) رواه عبده بن حميد في مسنده ، ١ / ١٣٥ رقم ٣٣٥ ، ورواه الطبراني والبيزار وصححه الالباني في صحيح
الترغيب والترهيب رقم (٢٨١٧) ، وينظر : الزيلعي ، نصب الرابة ، ٤ / ٣٥٥ .
(٤) أم الدرداء : هي خيرة بنت أبي حنيفة أم الدرداء الكبرى من فضلى النساء وعقلاهن وذات الرأي فهن من
العبادة والتمسك ، توفيت قبل أبي الدرداء وذلك في الشام ، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤ / ٢٩٥ .
(٥) أبو الدرداء : اشتهر بكنيته ، ولذا اختلف في اسمه فقيل : هو عامر ، وقيل عويمر ، أسلم رضي الله عنه يوم بدر وشهد
أحداً وأبلى فيها بلاء حسناً ، ولأه عمر رضي الله عنه قضاء دمشق في خلافته رضي الله عنه ، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه .
الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢ / ٤٦ .
(٦) رواه أبو داود ٤ / ٢٨٠ رقم : ٤٩١٩ والترمذي ، وقال الالباني في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين ٥ /
٢٦٤ : صحيح على شرط الشيخين .
(٧) البخاري (٢٧١٠) ومسلم (١٥٥٨) .
(٨) محمد الشوكاني ، نيل الأوطار ٨ / ٣١٧ .
(٩) ذكره الإمام علي رضي الله عنه في وصيته . يُنظر أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ٧ / ٣٢٨ .